معالم الإعجاز النبوي في رعاية الأيتام

ورقة مقدمة لندوة مركز أبحاث القرآن والسنة

جامعة القرآن الكريم

قاعة الشهداء

الاثنين 1430/5/28 الموافق 2009/5/17

كتبها: عبد الحي يوسف

جامعة الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

فقد جاءت شريعة الإسلام بتعاليم تضمن المحافظة على حقوق الناس جميعاً، ومن بينهم الأيتام؛ الذين قدَّر الله عليهم فقد الآباء الرحماء، الذين يكتسبون لهم، ويسعون لتأمين معاشهم، وتيسير أمورهم، ويبذلون لهم من عطفهم وحنانهم ما يطيِّب حياتهم، ويضمن لهم النشأة السوية، والحياة الرضية، التي تمتد إلى رجولة أو أنوثة نافعة مباركة، ولو نظرنا إلى نصوص القرآن الواردة في شأن معاملة اليتيم والتي تربو على العشرين؛ فإنه يمكن تقسيمها إلى خمسة أبواب:

أ. نصوص تدعو إلى دفع المضار عن اليتيم في ماله؛ حيث تنهى الشريعة الغراء عن أن تمتد يدٌ بسوء إلى مال هذا اليتيم (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن)[1] ويؤيد ذلك من السنة قول النبي ﷺ (من ولي يتيماً فَلْيَتَّجر له في ماله حتى لا تأكله الصدقة)[2] ثم النهي عن استبدال شيء مكان شيء (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيرا)[3] وهذه عادة أهل الجاهلية كانوا لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى، ويبدلونه بالرديء من أموالهم، ويقولون: اسم باسم ورأس برأس؛ فنهاهم الله عن ذلك[4]

[1] سورة الأنعام/152
[2] قال الحافظ في تلخيص الحبير: رواه الترمذي والدارقطني والبيهقي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، انظر التلخيص الحبير: 825/2
[3] سورة النساء/2
[4] الجامع لأحكام القرآن 9/5

ثم يأتي الوعيد المفزع (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)[1] وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال {رأيت أقواماً لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكِّل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما} قال القرطبي رحمه الله: فدلَّ الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر[2]، وقال ﷺ {اجتنبوا السبع الموبقات، وذكر فيها: أكل مال اليتيم}[3]

ب ـ الأمر بدفع أموالهم إليهم عند ثبوت الرشد (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم)[4] بمعنى أن يتأمل الوصيُّ أخلاق يتيمه ويستمع إلى أغراضه، فيحصل له العلم بنجابته، والمعرفة بالسعي في مصالحه وضبط ماله، ثم أحاط ذلك بموجبات الحفظ (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم)[5] أمراً بالتحصين وإزالة للتهمة.

ج ـ جلب المصالح وذلك في جملة أمور:

- بجعله مع الوالدين والأقربين في عدة مواضع كقول الله ﷻ (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى)[6] وقوله سبحانه (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا)[7] وقوله سبحانه (قل تعالوا أتلُ أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) إلى قوله سبحانه (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده)[8] وكذلك في أنواع البر والفيء (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن

---

[1] سورة النساء/10
[2] الجامع لأحكام القرآن 53/5
[3] متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
[4] سورة النساء/6
[5] سورة النساء/6
[6] سورة النساء/36
[7] سورة البقرة/83
[8] سورة الأنعام/151- 152

السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان)[1] وفي قسمة التركات (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا)[2]

- وإطعام اليتيم من صفات الأبرار (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ~ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ~ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا ~ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا)[3] ومن أسباب اجتياز العقبة (فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة)[4] وفي قصة موسى مع الخضر (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما)[5]
- وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال النبي ﷺ {أنا وكافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة} وأشار بالسبابة والوسطى[6] قال النووي رحمه الله تعالى: {اليتيم له أو لغيره} معناه: قريبه، أو الأجنبي منه، فالقريب مثل أن تكفله أمه أو جده أو أخوه أو غيرهم من قرابته. والله أعلم[7]

د . عدم الإساءة إليه فيما يتعلق بالجانب النفسي؛ وذلك في قوله تعالى (فذلك الذي يدعُّ اليتيم)[8] يدع اليتيم: أي يدفعه، ومنه قوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا)[9] ويقول سبحانه ناعياً على كفار قريش سوء خلقهم في هذا الجانب (كلا بل لا تكرمون اليتيم)[10] وفي حديث النبي ﷺ {خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في

---

[1] سورة الأنفال/ 41
[2] سورة النساء /8
[3] سورة الإنسان /5-8
[4] سورة البلد/11-16
[5] سورة الكهف/82
[6] رواه مسلم
[7] رياض الصالحين/155
[8] سورة الماعون/2
[9] سورة الطور /13
[10] سورة الفجر/17

المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه}[1] وفي حديث أبي شريح خويلد بن عمرو الأوزاعي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ {اللهم إني أحرّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة}[2]

هـ . ويأتي السؤال وجوابه من الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير)[3] مع ما ما تحمل كلمة الإصلاح من معان ومضامين، قال في أضواء البيان: أي تعاملوهم كما تعاملون الإخوان، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف، ولذا قال تعالى (والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح) وفي تقديم ذكر المفسد على المصلح إشعار لشدة التحذير من الإفساد في معاملته، ولأنه محل التحذير في موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد في قوله (وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً)[4] أي حتى في مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم، بل ربما كان لهم أولاد فما بعد أيتاماً من بعدهم، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاماً من بعدهم، فليحسنوا معاملة الأيتام في أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية.ا.هـ[5]

من معالم الإعجاز النبوي في رعاية الأيتام

1. أول ما يسترعي الانتباه في ذلك أن يقال: إن اليتم ليس عيباً ولا نقصاً، وكيف يكون عيباً ورسول الله ﷺ عاش أول حياته يتيماً؟ فقد توفي أبوه وهو حِمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه وهو ابن ست سنين، ثم توفي جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين. قال النيسابوري ـ رحمه الله تعالى: قال أهل التحقيق: الحكمة في يُتم النبي ﷺ أن يعرف قدر الأيتام فيقوم بأمرهم، وأن يُكْرِم اليتيم المشارك له في الاسم.ا.هـ[6] الاسم.ا.هـ[6] فعلى اليتيم أن يتذكر أن ناساً صاروا من عظماء التاريخ كانوا في

---

[1] رواه ابن ماجه
[2] رواه النسائي بإسناد جيد كما قال النووي رحمه الله
[3] سورة البقرة/220
[4] النساء/ 9
[5] أضواء البيان 214/9
[6] نضرة النعيم 3263/8

الأصل أيتاماً؛ فهذا أبو هريرة ﷺ يخبر عن نفسه فيقول: نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطني وعُقبة رجلي، أحدو بهم إذا ركِبوا، وأحتطب إذا نزَلوا؛ فالحمد لله الذي جعل الدين قِواماً، وجعل أبا هريرة إماماً.ا.هـ[1]

وكذلك الزبير بن العوام ﷺ الذي عدله عمر ﷺ بألف فارس. كان ناتج تربية أمه صفية ﷺ بعد أن مات أبوه وهو صغير فكانت أمه صفية تضربه ضرباً شديداً وهو يتيم، فقيل لها: قتلتِه، أهلكتِه! فقالت: إنما أضربه لكي يدبّ ويَجُرَّ الجيش ذا الجلب.[2] وهذا الإمام العلم مُحَمَّد بن إدريس الشافعي رحمه الله قال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: كنت يتيماً في حِجر أمي، ولم يكن عندها ما تعطي المعلِّم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه[3]. إلام صار الشافعي بعد ذلك؟ قال عبد الله بن الإمام أحمد لأبيه: أي شيء كان الشافعي؛ فإني سمعتك تكثر الدعاء له؟! فقال له: يا بني! كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس؛ فانظر هل لهذين من خَلَف أو عنهما عِوض؟[4] ومن سلف الأمة الصالحين ممن نشئوا على اليتم لكنهم ملئوا طباق الأرض نوراً وهدى وعلماً وصلاحاً الإمام القاسم بن مُحَمَّد والإمام أحمد بن حنبل وابن الجوزي رحمهم الله جميعاً، وصدق من قال:

ليس اليتيم من انتهى أبواه مِن همِّ الحياةِ وخلّفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمةِ منهما وبحسن تربيةِ الزمان بديلا
إن اليتيمَ هو الذي تلقى له أمّاً تخلّت أو أباً مشغولا

[1] حلية الأولياء 379/1
[2] سير النبلاء 44/1
[3] سير أعلام النبلاء 11/10
[4] سير أعلام النبلاء 45/10

2. الحث على كفالته بالإحسان إليه والنفقة عليه وتعليمه ما يحتاجه في دينه ودنياه فثبت عنه ﷺ أنه قال {أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بأصبعه} ومارس ذلك بنفسه عليه الصلاة والسلام؛ فروي عنه ﷺ ما يدل مبلغ عنايته بالأيتام وحرصه على تنفيس كروبهم وتفريج همومهم وإدخال السرور عليهم وعلى ذويهم، روى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: لما أتى نعي جعفر أتاهم رسول الله ﷺ فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي ابني أخي، قال: فجئ بنا كأنا أفرخ، فقال: ادعوا لي الحلاق، فجيء بالحلاق، فحلق رؤوسنا ثم قال: أما مُحَمَّد فشبيه عمنا أبي طالب. وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال: اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات. قال: فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تفرح[1] له، فقال: العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟[2]

3. الأمر بالمسح على رأسه؛ حيث حث النبي ﷺ على المسح على رأس اليتيم وعدَّ ذلك سبباً لرقة القلب؛ فحين شكا إليه رجل قسوةَ قلبه، قال {أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعِمه من طعامك؛ يلِن قلبُك، وتُدرِك حاجتَك}[3]

4. العناية بتعليمه وتوجيهه والإنكار عليه؛ فعن عمر بن أبي سلمة ﵁ قال: كنت في حِجْر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي {يا غلام! سمِّ الله وكُلْ بيمينك وكل مما يليك}[4] روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ {إن في حجري يتيماً}،

[1] تغمه وتحزنه من أفرحه إذا غمه وأزال عنه الفرح
[2] رواه أحمد
[3] رواه أحمد
[4] رواه مسلم

أفأضربه؟ قال: ما كنت ضارباً منه ولدك} وفي الحديث {من قبض يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر له}[1]

5. إماطة الأذى عنه وتنظيف جرحه؛ فعن عائشة ﵂ قالت : {عثر أسامة بعتبة الباب فشج في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: أميطي عنه الأذى، فتقذرته، فجعل رسول الله ﷺ يمصه ويمجه، ثم قال: لو كان أسامة جارية لحلَّيناه وكسوناه حتى ننفِّقه}[2] وعنها أيضاً أن أسامة كان بين يدي رسول الله ﷺ فذهب يمسح مخاطه، فقالت عائشة ﵂: دعني يا رسول الله دعني! أنا أليه، فقال رسول الله ﷺ {يا عائشة! أحبيه؛ فإني أحبه}[3]

6. التسوية بينهم وبين أولاده الذين من صلبه، ومن ذلك إردافهم على الدابة؛ فقد قال عبد الله بن جعفر ﵁ {كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تُلُقِّيَ بالصبيان من أهل بيته. قال: وإنه قدم مرة من سفره فسيق بي إليه فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة إما حسن وإما حسين فأردفه خلفه. قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة}[4]

7. العتاب الرقيق في معاملتهم، فقد قال أنس بن مالك ﵁ كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب!! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني نبي الله ﷺ قال: فخرجت حتى أمرَّ على الصبيان وهم يلعبون في

[1] رواه الترمذي وصححه
[2] رواه أحمد وابن ماجه
[3] أخرجه الترمذي
[4] رواه مسلم

السوق، فإذا رسول الله ﷺ قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك فقال {يا أنيس! اذهب حيث أمرتك} قلت: نعم! أنا أذهب يا رسول الله[1]

8. ضربه إذا احتيج إلى ضربه؛ فعن عائشة ﵂ قالت في أدب اليتيم {إني لأضرب اليتيم حتى ينبسط}[2] رواه ابن أبي الدنيا في العيال، أي يعتدل. وقال الإمام أحمد: اليتيم يؤدب ويضرب ضرباً خفيفاً[3] وقد قيل:

قسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

كتبه

عبد الحي يوسف

[1] رواه أبو داود
[2] رواه ابن أبي الدنيا في (العيال)
[3] الآداب الشرعية لابن مفلح 477/1